مدخل في دراسة التاريخ

حركة التاريخ عبر العصور

منذ بدء الخليقة حتى عصرنا الحاضر

* دراسة تاريخية، منهجية، تطبيقية وتحليلية *

اعداد

الدكتور / صلاح أبو زيد رزق

عضو هيئة التدريس بكلية الآداب بقنا

أ ـ بدء الخليقة :

قد يتساءل البعض ممن زودته الطبيعة بحاسة تاريخية، متى ظهر التاريخ ؟ وكيف بدأ .. ؟ وكيف تطور، ونما، وتقدم ؟ .. الى أن وصل الى ذلك التحول والشكل الذى أصبح عليه اليوم .. ولو حاول المرء اعمال العقل، وشحذ الذاكرة، بحثا عن رؤية تاريخية لحقيقة التاريخ لوجد نفسه واحدا من تلاميذ مدرسة هـ، ج، ولز صاحب كتاب موجز تاريخ العالم " والذى بدأ كتابه بحديثا حول نشأة الكون، والارض، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة "(١)

وفي محاولة متواضعة من جانبي للوصول الى حقائق تاريخية في هذا الصدد وجدت نفسي في حاجة الى استقراء الموضوع تاريخيا من جانب بعض المصادر التاريخية القديمة والحديثة في هذا الصدد .. ومن ثم صار لزاما علينا أن نرجع الى الكتب السماوية كالكتاب المقدس (التوراة، والانجيل) وكذلك القرآن الكريم .. كمصادر تاريخية، قص فيها الله سبحانة وتعالى علينا قصة الخلق ـ خلق الكون بما فيه من مكونات، وسماوات، وأجرام، وأفلاك، ومياه، ومحيطات ويابسة ـ أصبحت مسرحا لعمليات التاريخ، وكذلك قصة خلق الانسان صانع التاريخ، والمؤثر فيه، والمتأثر به .

وإذا ما يطالع الاصحاح الأول من سفر التكوين (العهد القديم) يجد أنه يتناول موضوع التكوين، البذرة الأولى للتاريخ .. كيف خلق الله في البدء السموات والأرض، والنور والظلمة والليل والنهار، وكيف خلق السموات والأرض، كيف أنبت فيها العشب والمحاصيل، والشجر

---

(١) ويلز، جـ ـ هـ : موجز تاريخ العالم، ص٧ .

.. ثم كيف خلق أنوار في جلد السماء لتفصل بين الليل ، والليل وتكون لآيات وأوقات، وأيام وسنين " وكيف خلق الله (جل شأنه) بعد ذلك الطيور ، والحيوانات، والزحافات، وغير ذلك من مخلوقات الله الحسنة ، والتي رأى الله جل جلاله ، وكما يذكر العهد القديم أنها حسنة .

ويقدم لنا الكتاب المقدس الصور الأولى لموكب التاريخ ، وكيف تحول من كلمة في ضمير الغيب الى واقع ووجود " في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة ليلا ، وكان مساء ، وكان صباح يوما واحدا .. ذلك هو — وكما في تصورنا — اليوم الأول للتاريخ — يوم ميلاد التاريخ .

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياة ومياه فعمل الله الجلد ، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا.

ولننتقل من اليوم الأول والثاني الى اليوم الثالث لنرى ماذا خلق الله خالق هذا الكون الفسيح بما فيه من سبع سموات وسبع أراضين ، وأجرام ، وأفلاك، وانسان ، وجان .. وهواء وحيوان .. الخ . وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضا ومجتمع المياه ودعاه بحارا ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، "وقال الله لتنبت الأرض عشبا ، وبقلا يبذر بذرا ، وشجرا ذا ثمر ، وشجرا يعمل ثمرا بذره فيه كجنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء ، وكان صباح يوما ثالثا " .

ويقص علينا العهد القديم قصة اليوم الرابع " وقال الله لتكون أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأياما وسنين ، وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك فعمل النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على وجه الأرض، ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة وكان صباح يوما رابعا .

وقال لتفض المياة زحافات ذات نفس حية وليطير طير فوق الأرض على وجه جلد السماء ، فخلق الله التنانين العظام ، وكل ذوات الأنفس الحية ، الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها ، وكل طائر ذي جناح كجنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلا :

اثمرى ، واكثرى ، واملأى المياه فى البحار ، وليكثر الطير على الأرض ، وكان مساء ، وكان صباح يوما خامسا .

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها والبهائم كأجناسها ، وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك حسن (١) .

صورة واضحة لعصر ما قبل التاريخ وفجره ، صورها لنا المولى عز وجل فى كتابه السماوى المقدس . نفس الكتاب الذى واصل فيه الله سبحانة وتعالى عملية وصف الأيام الأولى بل والسنين الأولى لبدء الخليقة ، وبنفس الطريقة وبنفس المنهج يحدثنا القرآن الكريم عن قصة الخلق ، خلق السموات والأرض بما فى باطنها وما عليها ، مواصلا الحديث عن ذكر سيدنا آدم أبو البشر وأبو الأنبياء ، ليقوم الى جانب الجن بعملية استعمار الأرض وعبادة الله (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (٢) . . . فاستخلف الله على الأرض آدم لكى يعمرها . . . وكان الهدف من عملية الخلق هى العبادة والتعمير ، عبودية المخلوق للخالق ، وتعمير المخلوق لارض الخالق . . نظرا لأنها كانت خربة وخاوية ، ونحن جميعا نعلم كيف خلق الله آدم من تراب ، ومن طين وصلصال ، وحمأ مسنون ، وكيف نفخ الله فيه بروح من عنده ، وطلب من الملائكة السجود له فسجدوا له ما عدا ابليس الشيطان الذى صور له غروره وصلفه أنه خير منه ، مشيرا الى أن آدم خلق من طين ، أما هو فمخلوق من نار وكانت المعصية ، واللعنة التى كتبها الله عليه الى يوم الدين . . يوم القيامة .

ويحمل المولى عز وجل قصة الخلق فى الآيات من ٢٩ الى ٣٩ من سورة البقرة حيث يقول جل شأنه (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم " واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم

---

(١) الكتاب المقدس : التكوين . تكوين ١ .
(٢) القرآن الكريم : سورة الذاريات . آيه ٥٦ .

فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم " صدق الله العظيم " (١)

وتتعدد الاشارات في القرآن الكريم الى الأيام الأولى التي قضاها كل من آدم وحواء والتي خلقها الله - وكما يذكر الكتاب المقدس - من ضلع أعوج لسيدنا آدم عليه السلام ويضيف أن اسمها منشق من كلمة الحياة .. ويحدثنا القرآن الكريم عن الفترات الباكرة من حياتها التي قضياها في نعيم ورغد ورخاء في الجنة منعمين بثمارها وأطيارها عدا شجرة الحياة التي أمرهما المولى عز وجل ألا يقرباها فيكونا من النادمين .. غير أن الشيطان وكما تذكر كتب اللاهوت السماوية وسوس لهما ، وأغراهما بالأكل منها فوقعا في المعصية ، وكان نفاذ أمر الله بانزالهما من الجنة الى الأرض ، كي يكفرا عن معصيتهما ، وفي سورة البقرة ، وفي سور أخرى عديدة من القرآن الكريم وصفا جميلا ، ومعبرا لقصة الصراع الأول بين الانسان ، والشيطان سواء داخل الجنه أو بعد الهبوط الى الأرض حيث تنوعت أشكال الصراع ، وأنماطه بين الانسان والشيطان منذ بدء الخليقة الى يوم يبعثون .. أى الى يوم البعث والنشور ، وهو صراعا قدريا بين الخير والشر منذ بدء الخليقة الى اليوم وغدا ، بين فضائل البشر وفضائل الشيطان .

ب - بداية التاريخ :

وبعد أن ألقينا الضوء على عصر ما قبل التاريخ وفجره .. يتحتم علينا أن نقدم تفسيرا لما سبق أن اوردناه من أمور حول قصة الخلق .. حتى نتعرف على قصة التاريخ .

يرى بعض المؤرخين أن هناك تقاربا بين كلمة History وهو المصطلح الانجليزى لكلمة تاريخ ، وبين كلمة Story وهو المصطلح الانجليزى لكلمة قصة . ويرى **محمد عبد الفتاح ابراهيم** صاحب كتاب " أفريقيا " - الأرض والناس " (٢) أن كلمة Story أى قصة انما

---

(١) القرآن الكريم : سورة البقرة ، آيات من ٢٩ : ٣٧ .
(٢) محمد عبد الفتاح ابراهيم : أفريقيا .. الأرض والناس . ص ٦ .

أخذنا من المقدمة أو العجز من كلمة لاتينية واحدة هى كلمة Historia.

والتاريخ نفسه قصة و " الرواية " أعنى رواية المؤرخ القديم لم تغب عنا صورته فى العصر الحديث، وأن كان المؤرخ الحديث فى الواقع يمثل دور الناقل الواعى لأنه يربط بين الناس والحوادث، وبين صور الحياة، ومجريات الأمور، يناقش طبيعة المجتمع عند مناقشته قيام الدول ونهضتها، وانحطاطها، فهو يستخدم الى جانب السرد القصصى علم الأسباب والعلل ليستطيع أن يقدر العوامل والدوافع التى كان لها أكبر الأثر فى النتائج.

وما دام هناك ثمة تقاربا بين القصة والتاريخ نجد أنه يمكن القول فى ضوء ما ذكره الأستاذ الدكتور رشاد رشدى أستاذ الأدب الانجليزى بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى كتابه: " فن القصة القصيرة "(١)، ومذكرة له أيضا بعنوان:

"Notes on structure and Texture In Narration,"(2)

وهى تدور حول عملية البناء والنسيج والشكل والمضمون فى العمل القصصى من وجهة نظر فنية، يرى أن القصة أية قصة لابد لها من توافر عناصر فنية معينة يقوم عليها البناء القصصى، وأن القصة لا بد لها من عناصر ثلاثة أى لابد لها من بداية، ووسط، ونهاية. وفى البداية دائما ما يقدم لنا القاص عناصر ثلاثة هى: الزمان، والمكان، والانسان "Time, Place, and The Anthropos"

وهى العناصر اللازمة لبداية أى حدث قصصى أو درامى Action. ونفس الوضع وكما هو فى تصورنا من الناحية النظرية، يمكن أن يطبق على التاريخ.. ولم لا؟ ألم نقل بأن هناك ثمة تقاربا بين التاريخ، والقصة بين كلمة History وكلمة Story. ألا يمكن القول أنه يخلق الله سبحانه وتعالى لليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم، وتعاقب ظهورهما بدأ يتوفر عنصر الزمان Time. ويخلق الله للسماء والأرض (التى أطلق عليهما الانجيل فى بادئ الأمر اليابسة) بل وغيرهما مما أدى الى أن توفر لنا عنصر المكان Place.

هل يختلف انسان على أن الأرض حتى يومنا هذا هى مسرح الأحداث وهى خشبة المسرح التى تجرى عليها أحداث التاريخ.. ويمكن القول أيضا أنه يخلق الله جل جلاله

---

(١) رشاد رشدى (دكتور): فن القصة القصيرة، ص ١٤.

(2) Roshdi, Rashad: Not es on structure and Texture In Narration. P. 2. (٢)

لسيدنا آدم أبو الانبياء وأبو البشر، وأمنا حواء .. توفر لنا عنصر الانسان صانع الأحداث ومن الصراع بين الانسان، وأخيه الانسان على أرض الواقع بفعل الأطماع والأهواء والغرائز والرغبات ومظاهر السيطرة، والسطوة والجشع، والاستغلال .. وما الى ذلك من الأمور التي تعتمل في أعماق البشر، ومن تداخلات الشيطان الذى أخذ على نفسه عهدا بالعمل على اغوائهم الى يوم الدين؟ " قال: فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم[1] . ومن هنا بدأت تظهر مظاهر الصراع على سطح الارض منذ بدء الخليقة الى عصرنا الحاضر. وصفوة القول أنه مع توفر هذه العناصر الثلاثة: الزمان، والمكان، والانسان، ومع تفاعلها، وحركتهما بدأت حركة التاريخ، وهكذا بدأ التاريخ بعد أن كان كلمة في ضمير الغيب يتحول الى جنينا ينبض بالحياة مع بدء حركة الانسان على الارض. ودبيبه على سطح اليابسة.

جـ ـ نشأة التاريخ :

وهكذا يمكن القول بايجاز أن التاريخ كان كلمة في ضمير الغيب، والله هو خالق هذا التاريخ .. فهو صانعه، وهو مبدعه، وهو خالق الكون، وهو صانع الوجود، منذ أزمان سحيقة، وحقب غابرة لا يعملها الا هو سبحانه وتعالى .. فهو وحده العليم بما سبق من أعصر وأدهار، وأيام، وقرون، وأزمان، وهى أمور تفوق قدراتنا العقلية كبشر ـ حيث أن قدرتنا العقلية وادراكنا الذهني كلٌّ قاصر ومحدود.

(قال فمن ربكما يا موسى قالا ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الاولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .) صدق الله العظيم[2] .

وكل ما يمكن لأى انسان أن يصل اليه من خلال الكتب السماوية ليس ككتب دينية فحسب بل وكمصادر تاريخية أيضا .. تتضمن أخبار القرون الخالية، والأمم السابقة وأرهاصات من الشعوب اللاحقة، هو أن الله خلق الظلمة والنور، وهو الذى خلق الليل والنهار، والسموات والارض وما بينهما من بخار، وأمطار، وأشجار، وأنهار، وأطيار، ومحاصيل حقلية، ومن زلازل، وبراكين، ومن جبال وتلال، ومن سهول ووديان، ومن انسان وحيوان، وهو خالق جنة عدن أول أرض شهدت أول حدث للتاريخ ـ فهى التربة الخصبة التي من ترابها خلق الله

---

(١) القرآن الكريم: سورة الاعراف، آيه ١٥ .
(٢) القرآن الكريم: سورة طه، آيات ٤٩ : ٥٣ .

آدم ، والذى من كيانه المادى الجسمى خلقت منه حواء ، وهى المسرح الذى شهد أول عرض مسرحى درامى بين الرجل والمرأة .. فلقد خلق الله المرأة منه ، وأودع فيها شوقا اليه ، كما يذكر الأديب الروسى الكبير ليوتولستوى صاحب ملحمة الحرب والسلام الخالدة .. وكما يشير الكتاب المقدس جعل الله كل منهما يتعرف على الآخر ويتقرب اليه ... وحبب كل منهما للآخر لا يملك شغاف قلبه يجعل كليهما يتوق الى الآخر ، ويرغب فى الامتزاج به ليصبحا صنوا واحدا وذلك منذ الفترة الأولى التى شهدت وقوع أول خطيئة للبشر بين آدم أبو الأنبياء وحواء قرينته مخالفين بذلك تعاليم الله الذى أوقع عليهم لونا من الجزاء ، وهو أبعادهما من الجنة ونفيهما الى الأرض لعدم مراعاتهما لآداب الضيافة ، واتباعهما وسوسة الشيطان ، ليعمرا الأرض ، وليأكلا بجدهما واجتهادهما وعرقهما قوتهما ، وليكفرا فى نفس الوقت عن خطيئتهما هما ومن سيأتى من بعدهما من نسلهما ، والى هنا يمكن القول أنه يخلق النور والظلام ، والليل والنهار ، وما بينهما ، وبخلق الأرض والانسان اكتملت العناصر المكونة للحياة ، والمشكّلة للتاريخ ، وكان التاريخ وكما هو فى تصورنا جنينا ..

وفى مرحلة ثانية بدأ التاريخ فيها يدخل طورا آخرا وهى المرحلة التالية من النمو والتى بدأ فيها التاريخ كطفلا يحبو ..

وفى الحقيقة اذا كان الكتاب المقدس فى الإصحاحات الثلاث الأولى قد أعطى لنا صورة حية ، ونابضة عن مرحلة الخلق ، والتكون للسماء والأرض ، والانسان ، وهى العناصر الأساسية المكونة للتاريخ ، فان الاصحاح الرابع وما بعده من اصحاحات يحدثنا عن أحداث ما بعد [illegible] على ظهر الأرض ومشيهما فى مناكبها ليأكلا من رزق الله الذى أفاء بها على عباده .

وهناك العديد من المراجع والمصادر والكتب الدينية لابن كثير وابن قتيبة ، وغيرهم كثيرين صالوا وجالوا فى هذا الموضوع ، كل يحاول أن يلقى الضوء عن الأيام الأولى والفترات الصعبة التى قضياها على الأرض الى أن تعرفا على بعضهما فى المنطقة التى تعرف بعرفات فى أرض الحجاز .. وقصة آدم وهو يضرب فى التيه ، ويسير فى صحراء الحياة باحثا له عن مأوى يحس فيه الأمن والأمان ، وكيف أن الله قيض له من ملائكته ما أقام له بيتا من (الذبرجد) وهو البيت الذى جعله الله آمنا ، وهو البيت الحرام .. الذى تهدم والذى أعاد بناءه سيدنا

ابراهيم الخليل ، وأقام قواعده هو ونجله اسماعيل وهو المعروف الان بالكعبة المشرفة بمدينة مكة المكرمة .. أعني بيت الله الحرام .. والذى كان ولا يزال وسيظل الطواف من حوله قربانا لله وتقربا ، وطلبا للغفران ، والمغفرة للمسلمين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وبعد أن أمن آدم على نفسه ، وبعد أن — وكما يذكر الكتاب المقدس — " عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين (وهو الذى يعرف عندنا كمسلمين باسم قابيل) وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب ، ثم عادت فولدت هابيل .. وكان هابيل راعيا للغنم ، وكان قابيل عاملا فى الأرض ، وحدث بعد أيام ان قايين قدم من أثمار الأرض .. قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ، ومن سمانها ، وشاءت ارادة الله أن يتقبل قربان هابيل الطيب القلب ، ولم يتقبل قربان قابيل فما كان من قابيل الا أن قتل أخاه هابيل " (١) وفى الحقيقة فإن هناك تفاصيل كثيرة فى هذا الصدد فى المراجع والكتب التاريخية ، والدينية لا حاجة لنا بها فى هذه العجالة السريعة ونحن نتحدث عن موكب التاريخ عبر العصور .

وكل ما يعنينا فى هذا الصدد أن ذلك كان أول شكل من أشكال الصراع ، شهدته البشرية ، متسما بطابع العنف ، بل ونحن نعتبرها — من وجهة نظر تاريخية — أول معركة فى التاريخ تنجم عن صراع بين الانسان وأخيه الانسان ويكون محصلة هذا الصراع الذى صاحبه الصلف والغرور ، والحقد الدفين لدى قايين والنزوع من جانبه لقتل أخيه ، أول حدث تاريخيا ، متكامل العناصر التى بدأت تشكل نسيج التاريخ من أرض جرت عليها جريمة القتل ، للانسان القاتل ، والمقتول ، والدوافع لأول جريمة قتل عمد مع سبق الاصرار والترصد ، وعاقبه الله بلعنه الأرض التى أصبح مهما عمل لا تعطية قوتها ، وكتب عليه فيها الضياع ، وان كان الله قد حرم قتله ، وفر هاربا من مسرح الجريمة الى أن سكن أرض نود .

وعرف قايين امرأته التى حملت منه وولدت له حنوك وقت بنائه لمدينة تحمل نفس الاسم وهكذا بدأ الانسان يعرف لونا من الاستقرار فى الأرض ويتجمع فى شكل أسرة ، وعشيرة ،

---

(١) الكتاب المقدس: التكوين ، تكوين ٢ ، ٣ ، ٤ .

وبدأ يكون مدينة ، وقام أحد أحفاده وهو لامك بالتزوج من امراتين (وكان ذلك أول شكل من أشكال تعدد الزوجات في التاريخ) وكان أبناء الثانية **يابال** الذى كان ابا لساكنى الخيام ورعاة المواشى ، وكان ذلك بطبيعة الحال أول شكل من أشكال الاقامة ، والعمل بعد الاستقرار فى مدينة ممنوك أول مدينة فى التاريخ ، أما أخيه **يوبال** فكان ابا لكل ضارب بالعود والمزمار . كما كان هناك من هو ضارب على كل آله نحاس وحديد ، (وكان ذلك أول شكل من أشكال الفنون حيث ظهرت على الأرض) **أول فرقة** موسيقية تتكون من العود وعازفة بالمزمار والآلات النحاسية ، والحديدية) . وعوض الله آدم عن **هابيل** بان وضعت امرأته **شيثا** .. وكان شبيها بأبيه ، ومات آدم عن تسع مئة وثلاثين عاما.

وتوالت عملية التكاثر والتناسل فى ذرية آدم ، وكثرت ذراريهم من البنين والبنات والأحفاد ، وكان **لامك** أحد ثمار شجرة آدم قد ولد **نوحا** الذى خلف لنا **ساما وحاما ويافث وكوش**، وهما آباء العديد من الشعوب الحالية السامية والحامية والكوشية (النوبيه) وما من شك فى أن هذه المعلومات التى يقدمها لنا الكتاب المقدس تعتبر لونا من ألوان التاريخ واعلانا بالوقت، وتصويرا لأحداث الماضى البعيد .. وبالتالى نحن نعتبر ذلك أول شكل من أشكال التاريخ .

هـ — التاريخ بين العدمية والوجود :

هكذا بدأ التاريخ يتحول ، وكما أسلفنا القول ، من كلمة فى ضمير الغيب الى حركة الى حياة .. بعد أن خلق الله الظلمة والنور والليل والنهار ، والسماء ، والأرض، والطير والحيوان ، والانسان .. حيث بدأت رحلة التناسل ، والتكاثر .. وتحول بذلك التاريخ من عدم الى وجود ، من كلمة الى شيئا ملموسا .. ومن جنينا الى طفلا ، ومن طفلا الى غلاما يافعا ، اذا جاز لنا تشبيه تطور التاريخ بتطور حياة الانسان .

ونرون ا الاصحاحات التالية من سفر التكوين ، ومن الاصحاح السادس حتى نهاية الإصحاح الثامن من قصة الطوفان الذى حدث فى عهد سيدنا **نوح** كحدث تاريخى جليل أو هكذا نحن نعتبره ، فلقد حدث فى تلك الأيام الخوالى من تلك الحقب الغابرة من التاريخ أن تكاثر الناس ومع تكاثر الناس تكاثرت الشرور ، حيث كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام وأسفرت عملية التكاثر عن ميلاد جبابرة فجروا الشر فى الأرض، مما أغضب الله عدا نوح

وأبنائه الثلاثة ، ومع فساد الأرض، وامتلائها ظلما ، قال الله لنوح "نهاية كل بشر قد أتت أمامي ، لأن الأرض امتلأت ظلما منهم فيها أنا مهلكهم مع الأرض٠٠ " وطلب من سيدنا نوح صناعة الفلك وطلائه بالقار (أول شكل من أشكال السفن التي تطورت فيما بعد وأخذت أشكالها المختلفة ، كما هو الحال الآن من ناقلات بترولية عملاقة الى أساطيل تجارية ، وعسكرية وبوارج حربية٠٠ الخ) وأن يجعله سكنا له ولبنيه ومن كل حي ذكر وأنثى من الطيور والحيوان وسائر دبابات الأرض، وكذلك المؤن من زاد وذواد وعتاد وطعام٠٠ ومع بداية الطوفان دخل نوح وذويه ، ومعه ما أشار به الله عليه دخل الى الفلك كما أمر به الله نوحا٠ " وحدث بعد السبعة أيام أن ميله الطوفان قد صارت على الأرض سنة ستمائه من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر٠٠ لاحظ أول شكل من أشكال التاريخ للمؤرخ خالق المؤرخين) ٠

وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض وتكاثر المياه ورفعت الفلك ، بل وغطت بالتدريج قمم الجبال الشامخة٠٠ فمحا الله كل قائم على وجه الأرض، الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء، وتبقى نوح ، والذين معه في الفلك ، وظلت المياه تغطي الأرض مئة وخمسين يوما٠ ثم نقصت المياه ، واستقر الفلك كما يذكر العهد القديم — في الشهر السابع في اليوم السابع من الشهر على جبال أراراط، وكانت تنقص نقصا متواليا الى الشهر العاشر(١) .

كما يصور القرآن الكريم قصه الطوفان تصويرا عظيما، ويحدثنا فيه المولى عز وجل عما حدث بين سيدنا نوح وقومه ابان تلك الأزمنه وذلك في سورة يونس: (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومة ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون ، فان توليتم فما سألتكم من أجري ان أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ، فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين)(٢) ، كما أن المولى عزوجل يورد لنا آيات أخرى تلقي الضوء على موضوع

---

(١) الكتاب المقدس: سفر التكوين ، تكوين ٥ — ٧ ٠
(٢) القرآن الكريم : سورة يونس، آيات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ٠

الطوفان .. مثلما هو وارد في سورة الأنبياء (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) (١) .

ويفهم من ذلك بطبيعة الحال أن من بالفلك نجا ، وأن من هو خارج الفلك هلك وغرق ، حتى أحد أبناء سيدنا نوح ، قد هلك أيضا عندما رفض دخول الفلك وقال لأبيه أنه سيأوى الى جبل يعصمه من الماء فقال له " (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) (٢) أما من خرجوا من الفلك كانوا هم الناجين ، وهم الخلائف في الأرض ، وكان ذلك كما يذكر سفر التكوين " في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء " وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض (لاحظ التوقيت والتقويم والتاريخ) حيث خرج نوح بعد أن صدر له الامر الالهي بالخروج هو وامرأته وبنوه ونساء بنوه ، وكل الحيوانات والطيور ، والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الارض بعد أن باركها الله آمرا اياها أن تثمر وتكثر على الأرض.

ونحر نوح الذبائح ، وقدم القرابين ، ووعد الله بعدم تكرار ذلك وان أيام الأرض زرع وحصاد ، وبرد ، وحر ، وصيف ، وشتاء ، ونهار وليل ، ولا تزال .

ونظم الله لهم نمط الحياة وحرم قتل الانسان وشدد عليه وقال " سافك دم الانسان بسفك دمه " ولعل ذلك أول شكل من أشكال القصاص .. بل أول شكل من أشكال القانون " كما أن المولى عز وجل أخذ على نفسه ميثاقا بألا يكون هناك طوفانا آخرا . وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث — وحام هو أبو كنعان — ومن هؤلاء الثلاثة انتشرت سلالة الانسان في الأرض " (٣) .

---

(١) القرآن الكريم : سورة الأنبياء ، آيات ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) القرآن الكريم : سورة هود ، آية ٤٣ .
(٣) الكتاب المقدس : التكوين ، اصحاح ٥ .

و — بداية ظهور الأمم والممالك :

ويحدثنا الأصحاح العاشر عن قصة انتشار الإنسان على الأرض من مواليد بني نوح وأبنائه ، وحفدته من بنو يافث جومر ومأجوج ، ومن هؤلاء كما يذكر الاصحاح بالحرف الواحد " تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كل انسان كلسانه حسب قبائلهم وأممهم " بنو حام **كوش ومصرايم ، وكنعان ، وكوش** هذا هو الذى ولد **نمرود** الذى ابتدأ يكون جبار في الأرض، وكان ابتداء مملكته بابل ، وأرك ، وأكد في أرض شنعار حيث خرج **آشور** وبنى نينوى وبذلك تفرقت أيضا قبائل الكنعانى ، كذلك قبائل بنى حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم ، وأممهم .

ومن سام ولد له **عيلام وأشور** ، ومن حفدته **بنو يقطان** ، ومن هؤلاء جميعا ، وذويهم تفرقت الأمم في الأرض . بعد الطوفان .. وكانت الأرض كلها — وكما هو في الأصحاح الحادى عشر بقعة من أرض شنعار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن ، فكان الحجر ، والحمر ، فكان الطين ، وقالوا هلم نبن لانفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ، ونصنع لانفسنا اسماء لئلا نتبدد على وجه كل الأرض (وكان ذلك في أول عهد للانسان باقامة المدن وتشييد المبانى ، وباستخدام الطوب الأحمر ، وكان أول عهده بالعماره ، والحضارة في شكلها الأولى والبدائى .

ويذكر الاصحاح أن الله تجلى لهم وأشار الى أن ذلك هو أول عهد بنى الانسان بالعمل .. أى أن الانسان بدأ يتعلم كيف يكد ويكدح ، ويبنى ويعمر ، لكى تستقيم أمور الحياة معه .

وبعد ذلك شاءت ارادة الله أن يحولهم من لسان واحد الى عدة ألسنة حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض فيدد هم الرب كما تذكر التوراه على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة لذلك اسمها بابل ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض .

وهكذا بدأ ابناء نوح يتداحون في الأرض، وبدأ حفدته يستقبلون عصرا جديدا ، والذين كانوا من سلالتهم فيما بعد ابرام وهو (سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام) ولوطا وهاران ، الذى عاش في أرض الكنعانيين في مدينة أور .. حيث خرج منها كل من ابرام ولوطا ابن هاران ، متوجهين الى أرض كنعان ، كما أتو أيضا الى حاران ، وذلك عندما

" قال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك، ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" وبنى فى ترحاله فى أرض المشرق والمغرب من هذه المناطق أكثر من مذبح للرب، ثم ارتحل للجنوب حيث حدثت مجاعة جعلته يتجه الى مصر، حيث أكرمت مصر وفادته، وأحسن الفرعون استقبالة وضيافته.

أما لوط فكان قد استقر فى كل دائرة الأردن، وكان ابرام غنيا جداً فى المواشى والفضة والذهب وسار فى رحلات الى بيت ايل كما سار معه لوط الذى كان له أيضا غنم وبقر وخيام، ونظرا لثرائهما واتساع دائرة املاكهما حدثت مخاصة بين رعاتهما، وقرر الاثنان الافتراق فتفرقا حيث استقر لوط كما اسلفنا القول فى كل دائرة الأردن ونقل خيامه الى سدوم حيث كان أهلها أشرار وخطاة. أما ابرام فقد أقام فى حبرون وبنى مذبحا للرب بعد أن وهبه الله أرضا شاسعه ممتدة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا كذلك.

ولقد بلغ الانتشار البشرى شأوا بعيدا فى ذلك الوقت وبدأ ثمة صراعا حدث بين البشر بعضهم وبعض حيث حدث صدام بين الملوك عالقة تلك الأيام عندما اشتبك ملك عيلام وملك جويين فى حرب مع ملك سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وكذلك ملك أدمه وملك صبنوييم وملك صوغر، واتسعت دائرة الحرب فشملت البرية، وقادش، وضربوا كل بلاد العمالقه، كما نظموا حربا فى عمق السديم، أربعة ملوك مع خمسة. وذلك بسبب آبار خمر فى عمق السديم حيث هرب ملكا سدوم وعموره وسقطا هناك، والباقون هربوا الى الجبل فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة، كما استولوا على أملاك لوط، ابن أخى ابرام واملاكه.

وعندما وصلت أخبار هذه المعارك والحروب الى ابرام العبرانى (سيدنا ابراهيم عليه السلام)، وعلم بأسر أخاه توجه ومعه أولاده ورجاله حيث انقض عليهم فى دان ليلا هو عبيده فكرهم، وطاردهم حتى شمال دمشق، واسترجع لوطا وأملاكه، ونسائه فهنأه ملك سدوم بالنصر على صور كما هنأه أيضا ملك شاليم الذى أحتفل به، وحياة قائلا " مبارك أبرام من الله العلى مالك السموات والأرض، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعدائك فى يدك "(١)

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم: الاصحاح التاسع حتى الاصحاح الرابع عشر.

بداية ظهور الأمم والشعوب :

وهكذا تتوالى بقية اصحاحات سفر التكوين تلقى لنا المزيد من الضوء عن عصرما قبل التاريخ وفجره، وتلقى لنا المزيد عن رحلة الانسان الأول فى طول الأرض وعرضها فى جبالها ووهادها، ومياهها وصحاريها، ودوره فى زرعها، وقطف ثمار عمله وجهده، وصراعه من أجل البقاء، ونزعاته وأطماعه، ومشاكله، ومعاركه، وحروبه، ورقابة الله سبحانه وتعالى له، ورسمه لطريقة، واختيار أصفياء منهم، أمثال **نوح**، **وابراهيم** (**ابرام**) ومباركته لهم كأنبياء، ونصرهم على أعدائهم، ورسمهم صورا عظيمة للبطولة والفداء، ثم يوالى سفر التكوين تقديم قصص الأنبياء من نسل **ابراهيم كاسحق، ويعقوب، واسماعيل**، الى مرحلة تكليف **موسى** برسالة اليهودية لبنى اسرائيل .

وهكذا وكما رأينا من قبل كانت بداية ظهور العشائر والقبائل والممالك والجماعات والشعوب، كالكلدانيين والكنعانيين، والبابليين، والاشوريين، والسومريين، والاكديين وغير ذلك من الممالك التى ظهرت فى الشرق القديم، والتى تحتاج الكتابه عنها الى مجلدات ومجلدات للاحاطة ببدايات ظهورها، وأطوارها، وأدوارها فى صنع التاريخ، وفترات ازدهارها، واضمحلالها، وسقوطها، ونهايتها، وما خلفته من آثار وما ترتب من آثار حضارية .

ومن منا من المهتمين بالدراسات التاريخية، ومن غير حتى المشتغلين بها لم تتاح له من خلال دراساته بالمرحلة المدرسية أو قراءاته الجانبيه، الحصول على بعض المعلومات التى تلقى، ولو بعض الضوء عن تاريخ هذه الممالك والأمم، والشعوب فى التاريخ القديم . بل وأكثر من ذلك ما كان هناك من صلات، واتصالات، وعلاقات طيبة أو غير طيبة مع الفينيقين والفراعنه والكوشيين .. وأعتقد وكما هو فى تصورى يدرس الطلاب أحيانا العلاقات مثلا بين مصر والسودان، وما حدث بينهم وبين الفراعنه من حروب، وصداقات وما تركه ذلك من آثار على التاريخ المصرى، وانعكاسات ذلك سلبا أو ايجابا على التاريخ الافريقى .

ز — عصر الرسالات :

كذلك مثلا بداية ظهورة الأنبياء من نسل **ابراهيم** وما كلفوا به من رسالات سماويه **موسى** الى بني اسرائيل ثم بداية انتشار اليهودية ، فرساله **عيسى** عليه السلام ودوره في نشر المسيحية في ربوع آسيا والشرق القديم ومناطق آسيا الصغرى ، وجنوب أوربا حيث ظهرت أضخم مملكة مسيحية في ذلك الوقت وهي الدولة البيزنطية المترامية الأطراف ، والتي كانت من أضخم القوى المعارضة في تلك الفترة ، والتي كانت تقف على طرفي نقيض مع الدولة الفارسيه أو الساسانية حيث كانا يشكلا الى ما قبل ظهور الاسلام أكبر قوتين عظيمتين في عالم ذلك اليوم .

وكانت السلالات السامية والحامية قد غطت معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية ومناطق شمال شرق أفريقيا ، كما أنتشرت السلالات المغولية الآسيوية ، والعناصر القوقازية في أوربا وفي أفريقيا القوقازية .

وظهور الاسلام على يد الرسول الكريم **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب** صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك في شبة الجزيرة العربية كما نعلم جميعا ، وكيف انتشر فيها عن طريق الغزوات والفتوحات والتجارة في بلاد الشام ومصر ، والسودان ومناطق الشمال الأفريقي وآسيا الصغرى ، و شهد العالم دولا اسلامية كبرى ، وامبراطورية اسلامية مترامية الأطراف عبر آسيا وأفريقيا ، وأوربا وكلنا درس طرفا من تاريخ هذه الدولة فمن منا لم يدرس شيئا عن عصر ظهور الاسلام والفتنة الكبرى ، وعصر الخلفاء الراشدين وحروب الردة ، والأمويين والعباسيين ، والفاطميين ، والأخشيديين ، ودولة بني زيان ، ودولة بني بويه ، والقرامطة ، والحشاشين ، والخوارج ، والمتكلمه ، والزيديين ، وأئمة عمان ، والمماليك وتجاراتهم الزاهرة مع المدن الايطالية .. وتقوض صرح دولتهم بعد دخول العالم عصر الكشوف الجغرافية .. واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى الهند وكانت هذه الأمم ذات حضارة (١) .

---

(١) الكتب السماوية المقدسة : التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، ومصادر ، ومراجع تاريخيه متفرقة .

حـ ـ عصـر الحضـارات :

ولقد أثرت حضارة الشرق الذى هو مهد الحضارة الانسانية ، فى حضارة الغـــرب ونحن وكما نعلم أن الشرق شهد ظهور العديد من الحضارات كالحضارة الفرعونية فى مصـر ، والحضارة البابلية ، والأشورية فى دجلة والفرات فى العراق القديم ، بينما ظهرت الفينيقيـة على سواحل لبنان (بلاد الشام) منذ الالف الرابعة قبل الميلاد ، وصحب ذلك انتشارها فى قارات آسيا ، أفريقيا ، وأوربا ، أما فى الشرق الأقصى فان الحضارات الهندية والصينيـة اقتصر أثرها على البلاد التى قامت فيها ولم يتم الاتصال بينها وبين حضارتنا الا قبل الميلاد ببضـع قـرون .

كما انتقلت المؤثرات الحضارية من الشرق الى بلاد الاغريق قديما ، وقيام الحضـارة ، الاغريقية أو الهيلينية ، حيث كانت أوربا خاملة الذكر حتى الالف الاول قبل الميلاد وذلـك باستثناء جنوب مشـرق أوربا " شبه جزيرة البلقان " التى انتقلت اليها حضارتنا القديمة عبر جزر البحر المتوسط مثل كريت وقبرص وروود س ، مما أدى الى قيام حضارة الاغريق الزاهرة وهى أقدم حضارات أوربا ، ثم قام الاغريق بنقل حضارتنا مع هجراتهم ونشاطهم التجارى الـــى جزيرة صقلية ، وجنوب إيطاليا ، وجنوب فرنسا ، وشرق أسبانيا ، وسواحل الأناضـــول والبحـر الأســود .

ولقد حدثت عملية مزج بين حضارات بلادنا والحضارة الاغريقية القديمة وقيام الحضارة الهيلنستية ، حيث كون الاسكندر الاكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ٣٣٢ ق م أمبراطوريـه واسعة ضمت لأول مرة حضارات العالم القديم فى أوربا والشرق فازداد الاتصال بين الحضـارة الإغريقية والحضارات الشرقيه ، وترتب على المزج بينهما قيام حضارة جديدة هى الحضـــارة الهيلينستية ومن أهم مراكزها الاسكندرية فى مصر وأنطاكية فى سـوريا .

كما تأثرت الحضارة الرومانية بحضارات الشرق ، كما كون الرومان منذ القرن الثالث قبل الميلاد أمبراطورية واسعة أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية تتوسط أملاكهم واقتبسوا حضـارة الاغريق ، واقاموا عليها الحضارة الرومانية ، ثم نقلوها الى بلاد الغال (فرنسا الحاليـه) وبريطانيـا .

وصفوة القول أننا أصل الحضارة فى كل العصور القديمة أخذها عنا الاغريق ونشـروهـا

في انحاء أوربا ، ثم خلف الرومان الاغريق واستفادوا من حضارتهم ونقلوها بدورهم الى بقية أوربا .

هذا في الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش في بحار العصور المظلمة الممتدة من القرن الخامس الميلادى الى القرن الثامن الميلادى حيث حلت بأوربا نكسة حضارية انطفأ فيها مشعل الحضارة ، وساد الجهل ، والتآخر بعد أن سقطت القبائل الجرمانية المتبربرة روما عاصمة الدولة الرومانية الغربية ٤٧٦ م .

وبعد أن نعمت أوربا بالهدوء أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الميلادى نتيجة لاستقرار القبائل الجرمانية ، تعرضت أوربا من جديد لغارات الشماليين (الفايكنج) مما أدى الى انتشار الفوضى وقيام نظام الاقطاع الذى ترتب عليه : —

(أ) سياسيا : تقسيم البلاد الأوربية الى وحدات سياسية صغيرة .

(ب) اجتماعيا : تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات جامدة هى : طبقة النبلاء ، الحاكمة والفرسان المدافعة ، والأرقاء أو العبيد ، ولم يربط بين تلك الوحدات جميعا سوى الديانة المسيحية الكاثوليكية بزعامة البابا فى روما .

كما شهد ذلك العصر ايضا ازدهار الحضارة في الوطن العربى خلال العصور الوسطى وقيام الحضارة العربية الاسلامية ، حيث نجد أنه في الوقت الذى كانت فيه روما تعيش عصورها المظلمة ظهر الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، وانتشر من شبه الجزيرة العربية وتكونت الدولة العربية الاسلامية الكبرى ، ولقد تفوقت الحضارة العربية الاسلامية على ما جاورها من حضارات الشرق والغرب ، وذلك بفضل التسامح الاسلامى والموقع الجغرافى المتوسط ونشاط المسلمين فكانت البوتقة التى انصهر فيها أفضل عناصر الحضارات المجاورة مضافا اليها ما أتى به الاسلام وما تركه العرب القدماء ولهذا قامت أعظم حضارة فى العصور الوسطى فى العلوم والفنون ، والآداب ، وهى الحضارة العربية الاسلامية .

ولقد انتقلت هذه الحضارة الى أوربا عن طريق مراكز ثلاث هى :

الأندلس:

التى حكمها العرب من القرن ٥ م . الى القرن الثامن الميلادى فأنشأوا الجامعات ودور الكتب التى جذبت طلاب العلم من أوربا فتتلمذوا على يد العلماء العرب كابن سينا

ثم نقلوا ما تعلموه من علوم وفنون وآداب الى بلادهم ، ثم قامت حركة ترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية ، ورغم الضعف السياسى لدولة العرب فى الأندلس منذ القرن ١١ وطردهم نهائيا فى القرن ١٥ فان الأسبان ، والبرتغاليون ، أفادوا من تراث العرب الحضارى وظهر ذلك واضحا فى حركة الكشف الجغرافية .

كما حكم المسلمون من القرن ٩ م — ١١ م ولمدة مائة وثلاثون عاما .. ونقلوا حضارتهم اليها ، حتى أن ملوك النورمان الذين طردوا العرب منها أقاموا من علمهم حيث أرسلوا الى بلاطهم أئمة العلماء العرب مثل الادريسي الجغرافى المشهور الذى رسم خريطة العالم كما أسسوا جامعة نابلى لنشر الكتب العربية فى أوربا بعد ترجمتها الى اللاتينية .

ط — عصر النهضة الأوربية :

وفى البحر المتوسط ، بحر المشرق ، حيث التقى الأوربيون بالعرب عن طريق التجارة وأثناء الحروب الصليبية ما بين القرنين ١١ م ، ١٣ م فنقلوا عن العرب حضارتهم فى العلوم المختلفة والفنون والصناعات وقويت فيهم روح البحث وحب الاطلاع ، وكان لهذا أثرة فى تحرير أذهان الأوربيين من الأوهام والخرافات مما مهد لقيام النهضة الأوربية .

وان كان فى الوقت الذى بدأ الأوربيون يستفيدون من حضارتنا الاسلامية الزاهرة كان نجم العرب قد أخذ فى الأفول (الاضمحلال) بسبب الانقسام المذهبى والسياسى ومحاربة بعض الحكام للعلم ، وسيطرة عناصر رجعية تركية على الشعب العربى ، يضاف الى ذلك العزلة التى فرضها الأتراك العثمانيون على العرب منذ القرن ١٦ (١) .

ولقد أسفرت فترة الاستيعاب والتصهر الحضارى فى أوربا والتى بدأت فى أعقاب الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر ، والقرون التالية عن نشاط فى دروب الفكر والمعرفة واحياء للدراسات الاغريقية واللاتينية ظهر تباعا وبصور متفاوته ومختلفة المجتمعات الأوربية وفى حقول الأدب أو الفلسفة أو العمارة والنحت والسياسة وغيرها ، ويعد ذلك من أهم مظاهر حركة النهضة الأوربية ، ومع أن ملامح الفكر الجديد قد حملت فى جانب كبير منها ، وعبر مراحل التطور على تعاليم الكنيسة والمكاسب الطبقية لرجال الدين الى أن الطابع الدينى

---

(١) يوسف كامل تادرس : أصول العالم الحديث ، ص ص ١ — ٦ .

ظل يميل ويحاصر الكثير من اتجاهات عديدة من جوانبها ، وبمعنى آخر فقد ظل الدين ولمدة طويلة تدور حوله الأفكار الجديدة سواء في التأثر بالفلسفة اليونانية ، والأفكار واستغلال الحكام وأقبل الكثير على تعلم الفلسفة اليونانية ، وكذلك اللغة اليونانية وبخاصه في جامعات ايطاليا ، وقد أدى ذلك الى أن تغلب على " الفرد " في عصر النهضه وفي ايطاليا بالذات الكبرياء ، واثبات الذات ، وأصبحت الصفة المميزة للانسان ادارة القوة والسعي للعظمة بكل وسيلة ، وبالتالى غلبت المدارس الفلسفية الداعية الى الأخذ بالعقل .. والتي لقيت معارضة في كثير من آرائها من قبل البابوية ، وكانت مقدمة لنشؤ العلمانية الحديثة في القرن الثامن عشر (١) .

ونتج عن حركة التنوير هذه اختراع آله الطباعة في مطلع القرن الخامس عشر في المانيا وسرعان ما أنتشرت في بقية أوربا ، ولندن سنة ١٧٤٦ م وأدى هذا الأختراع الى اتساع دائرة النهضة ، ووصول أفكارها الى قطاع كبير من الجماهير عن طريق طبع الكتب بكثرة وسرعة وبأثمان ميسورة عن ذى قبل .

كما نتج عن الثراء الفكرى الذى أخذ يزداد شيئا فشيئا الوصول الى عديد من النظريات والاختراعات التي أسهمت في خلق طبقة بورجوازية أكثر وعيا ، أزدادت وأتسعت نظاقاتها في أعقاب الكشوف الجغرافية . وتفاعل هذا مع أزدياد وانتشار الأفكار الجديدة الى مزيد من الاقبال على الكتب ، حيث أتجه الناس الى توسيع أفقهم العلمي ، بعد نجاح الكشوف واتساع المجالات الجغرافية ، وازدادت حركة اتساع وانشاء المدن واقبال العمالة من الريف على الصناعات الجديدة . ومن جهه أخرى فان ارتباط مصالح البرجوازيين بالملوك والحكام قد دعاهما لان تتفاقما سويا لتقويض وانهاء نظام الاقطاع مما أسهم في اتساع نفوذ وثراء الطبقة البرجوازية ، وسيطرتها بالتدريج على أغلب وسائل الانتاج وتكون نوع جديد من الاقتصاد وهو الاقتصاد الرأسمالي الذى حل بعد فترة صراع طويل محل الاقتصاد الاقطاعي

أصحاب الاتجاه الفكري الثاني ، والداعي الى تنقية العقيدة المسيحية من قيود رجال الدين ، واستغلالهم ، وتصفيتها من الشوائب التي لحقت بها ، فقد ظل هذا

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) تاريخ أوربا الحديث والمعاصر . ص١٢ .

الاتجاه بتطور وينمو حتى عبر عن نفسه في مسار معتدل وهو حركات الاصلاح — أو الثورة — الدينية، والتي وان اختلفت في الاسلوب والنتائج الا أنها التقت عند الدعوة لتطهير العقيدة من شوائبها والتخلص من سيطرة رجال الدين واستبدادهم وكذلك عبر هذا التيار في مساره المتطرف عن نفسه، ووفقا للظروف الاجتماعية في بعض البيئات الأوربية في الدعوه للثأر من المسلمين وكرههم فخلف نظرة حقد لا يستطيع أن يخفيها كثير من الكتاب والساسه الأوربيين ثم كان وراء الدعوة للهجوم على بقية المسلمين في الاندلس مواصلة الهجوم عليهم في الشمال الأفريقي، بل وتتبعهم الى قلب جزيرة العرب، والعمل على نشر المسيحية في البلاد الاسلامية، كل هذا أسهم في وجود أنصار لحركة الكشوف الجغرافية — ولدى العوام الأوربيين المشتركين فيها على الاقل كانت أغلبها دينية أكثر منها اقتصادية أو علمية، وكان من العوامل الرئيسيه التي أدت الى النهضة الأوربية ظهور اللغات الحديثة كنتيجة لبروز التيار القومي واتساع دور المدن وظهور نظريات جديدة في الفكر السياسي نتيجة لموجة النهضة المعادية للاستبداد التي أعتمدت على العقل لارتباطها بالفكر الاغريقي ولأنها حملت سمة الهجوم مع استبعاد رجال الدين، وأدى اختلاف هذه النظريات من شعب لآخر هذا الاتجاه[١].

ولقد تعددت مظاهر النهضة فشملت نواحي الحياة الفكرية والفنية، والاقتصادية والسياسية والدينية، حيث عمل الايطاليون على احياء الآداب، والفنون القديمة وأستخدام اللغة الايطالية في الكتابة، والتعبير عن الأفكار الجديدة في الانسان والطبيعة متخذه طابع الحرية الانسانية، كما أزدهرت فنون التصوير والنحت والعماره، كما حدث تقدم في مجال الموسيقى والمسرحيات والتمثيليات ذات الطابع الدنيوى، كما أزدهرت الجامعات في مدن بولونا ونابلى وبادوى، وأنشئت الاكاديميات العلمية مثل أكاديمية فلبورنا وازدادت العناية بالمكتبات وتزويدها بالمخطوطات واتسع نطاق المعرفة وفي المدارس قل الاهتمام بالدراسات الدينية، بينما زاد الاهتمام بدراسة التصوير والرقص، كما حدث نمو في المدن وتقدم التجارة والصناعة، حيث قامت الاساطيل الايطالية بنقل متاجر الشرق الى أوربا فتقدمت صناعة السفن في الموانى وفن الملاحة، ورسم الخرائط، وازدهرت الصناعة

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص ص ١٢، ١٣.

واستخدمت الخيول وقوة المياة فى ادارة الآلات، وكنتيجة للتوسع التجارى والصناعى قامت البنوك والبيوت المالية وظهرت طبقة جديدة من رجال المال والأعمال سميت الطبقة البرجوازية أو الوسطى سكنت المدن، التى نمت مما أدى الى انهيار النظام الاقطاعى (١).

كما ظهرت بعض النظريات السياسية فى الحكم والادارة فى بلاد ممزقة سياسيا بسبب التنافس بين الأمراء والأطماع الأجنبية ظهرت كتابات مكيافيلى صاحب كتاب الأمير، وصاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة، والتى تأثر بها كل من **عمانوئيل، ونابليون، وهتلر**.

كما ظهر ابان تلك الآونه العديد من أعلام النهضة فى الآداب والفنون أمثال: **دانتى اليجيرى** صاحب الكوميديا الالهية. **وبترارك** الذى سار فى نفس الدرب، **وليونارد دافنشى** صاحب رائعة (الموناليزا)، والذى أتقن الى جانب التصوير الرياضة والتشريح، والنحت والموسيقى والشعر. **وروفائيل سانزيو** والذى اشتهر بقدرته على تكوين الألوان واستخدام قواعد المنظور، والحركه ومن أشهر لوحاته (مدرسة أثينا). وكذلك **مايكل أنجلو** والذى ظهرت عبقريته فى رسوم على سقف كنيسة سستين فى روما التى صور فيها قصة الانسان من بداية الخلق الى الطوفان، ومن أشهر رسومه صورة خلق آدم. كما شارك فى تشييد كنيسه القديس **بطرس** فى روما وبناء عدد من القصور فيها (٢).

كما امتدت آثار ومظاهر النهضة فى دول أخرى غير ايطاليا مثل فرنسا، واسبانيا وانجلترا وألمانيا، وان كانت قد اختلفت فى هذه الدول عنها فى ايطاليا رغم تأثرها بها، وذلك طبقا لظروف كل دولة ومزاج شعبها ودرجة تطورها التاريخى.. ففى فرنسا كان بلاط ملكها فرانسوا الأول (١٥١٥ — ١٥٤٧) مركزا علميا وقد اتخذت مظاهر ثقافية، وأدبية، وفنية، ومعمارية (٣).

أما فى أسبانيا فقد اتجهت اتجاها جغرافيا تمثل فى حركة الكشوف الجغرافية، وأدى التعصب الدينى الى كتب الأفكار فحرمت النهضه أهم مقوماتها، أما فى انجلترا، فقد

---

(١) حسن عثمان: أفريقيا فى جحيم التيه — مقال فى مجلة الدراسات الأفريقية — العدد الأول، ص ص ٩ — ٤٦.

(٢) يوسف كامل تادرس: تاريخ أصول العالم الحديث، ص [illegible].

(٣) عبد العزيز كامل الشناوى (دكتور): أوربا فى مطلع العصور الحديثه، ص [illegible].

أخذت اتجاها انسانيا ، وأدبيا ، وعلميا ، حيث ظهرت الحركة الانسانية على يد عدد من رجال الفكر الانجليزى ممن تعلموا فى ايطاليا وعادوا الى بلادهم وكونوا جماعة مصلحة أكسفورد ، الذين عملوا على بعث حركة فكرية فى انجلترا عن طريق التدريس والوعظ والتأليف مجال الأدب ظهر السير **توماس مور** مؤلف كتاب المدينة الفاضلة (يوتوبيا) الذى رسم فيه صورة مجتمع مثالى يعيش فيه الأفراد فى بيوت رحبة تتوافر فيها المياه الصالحة للشرب والنظافة ويعمل الناس ٦ ساعات يوميا وناد ى بتوزيع الخيرات على الناس بالتساوى .

كما ظهر أيضا الكاتب المسرحى المشهور والذى تعتبر كتاباته وقصصه من روائع الأدب الانجليزى ، ومن أشهر مؤلفاته هاملت ، ورميو وجولييت . وفرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) مؤلف كتاب أطلنطا الجديدة ، الذى رسم فيه صورة لمجتمع أخذ بأسباب العلم وشهد تقدما صناعيا رائعا ، وتنبأ بكثير من المخترعات الحديثة .

أما النهضة فى ألمانيا فتمثلت فى ازدهار الفلسفة الانسانية بحكم الصلات القوية بين ألمانيا ، وايطاليا ، وتعلم كثير من الألمان فى ايطاليا وقد شجع اختراع الطباعة على قراءة الكتاب ، ونقله ، كما أخذت النهضة اتجاها دينيا نظرا لان الألمان لم يكن لهم تاريخ طويل وتراث كالإيطاليين وظهر **مارتن لوثر** الذى هاجم بدع الكنيسة الكاثوليكية وأسس المذهب البروتستنتى ، وان كانت قد ظلت حياة الشعوب كما كانت فى العصور الوسطى اذا استثنينا من ذلك التحرر من قيود الاقطاع ولم ينعم بالنهضة إلا طبقة الاغنياء الذين رعوا الفنون والآداب(١) .

ى ـ عصر الكشوف الجغرافية :

مما لا شك فيه أن الكشوف الجغرافية كانت من أهم نتائج النهضة الأوربية وقد سبق التحدث عن أثر الدور الاسلامى فى النهضة الأوربية والتى بدأ من عاملين مهمين أحدهما : ايجابى وتمثل فى كم العلوم الاسلامية التى انتقلت الى أوربا فى أواخر العصور الوسطى عبر ايطاليا والأندلس ومن خلال الحركة التجارية عبر البحر المتوسط ، والآخر سلبى ممثلا فى الدور العثمانى الذى أسهم فى احداث هزة عنيفة كانت كالزلزال الذى تحرك على أثره عقل الفكر الأوربى بعيدا عن اطار الالتزام التقليدى الذى فرضته الأنظمة الأوربية التى سقطت

---

(١) عبد العزيز كامل الشناوى (دكتور) : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

امام الفاتح العثمانى .

وقد أسهمت هذه العوامل فى صياغة نتائج النهضة الأوربية وبخاصة فى التيار الذى دعا للهجوم على العالم الاسلامى ورفع اتباع هذا التيار الذى تزعمته البرتغال — شعار اعادة العرب الى الصحراء — التى خرجوا منها والعمل الدائم على أضعاف قوة الاسلام وخرجت حملاتهم الكشفية لتبحث عن طريق آخر غير البحر المتوسط للوصول الى المنطقة الاسلامية بالالتفاف حول افريقيا بالارتباط بمملكة الحبشة المسيحية للتحالف على تحقيق هذا الهدف، ثم السعى لتكوين ممالك مسيحية فى الشمال الافريقى ، والعمل على نشر المسيحية فى أفريقيا .

وأمام تمكن المسلمين بزعامة العثمانيين من التصدى لهذا التيار ثم تغلب العامل الاقتصادى الذى شغل الطبقة البورجوازية فى أوربا ودفعها للسعى لكسر احتكار المسلمين للبحر المتوسط وطرق التجارة القديمة ، اتجهت هذه الرحلات الى السعى فى البحث عن أماكن جديدة لاستعمارها وتحقيق أحلامها وثرواتهم منها وأطلق المؤرخون عليها اسم حركة الكشوف الجغرافية ، ومن هنا فانه من المؤكد أن الدوافع الأولى لهذه الحركة كانت دينية وبخاصة لدى العوالم أكثر منها علمية أواقتصادية لدى الطبقة البرجوازية ، ومن المظاهر التى تؤكد هذه الحقيقة سبق أسبانيا ، والبرتغال الى الرحلات الكشفية ومن الثابت سيطرة الروح الصليبية على حكام هاتين الدولتين وخضوع سياستيهما لهذه الروح وترجع هذه الروح الى طول فترة الصراع بينهم وبين المسلمين حتى تمكنوا من اخراجهم الأمر الذى أدى الى الرغبة فى مطاردتهم للمسلمين فى الشمال الافريقى ثم الى بلاد العرب.

وقد نعم هذا الاتجاه بالسعى من قبل اسبانيا بالتأييد من قبل البابويه ، وطبقة رجال الدين الى جانب الطبقة البورجوازيه التى كانت تحض العوام والتجار على تشجيع الرحلات الكشفية كما كانوا يرسلون الرهبان للاسهام فى دوام اشعال الروح الحماسية سواء لنشر المسيحية الكاثوليكية أو لتزكية الروح العدائية للاسلام — الذى وصفوه بالطاعون — والمسلمين (١) .

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق ، ص ١٩ .
دفى ، جيمس: الاستعمار البرتغالى فى أفريقية ، ص ص ٣٢ ، ٣٣ .

على أن ذلك لا يقلل من أهمية العوامل الأخرى التى أسهمت فى دفع حركة الكشوف الجغرافية سواء فى البرتغال وأسبانيا أو فى غيرها من الدول التى سرعان ما لحقت بهما فى هذا المضمار كهولندا ، وانجلترا ، وفرنسا .. وهى عوامل ارتبطت من حيث أهميتها بالظروف الإجتماعية والإقتصادية والسياسية لكل مجتمع من هذه المجتمعات ويأتى العامل الإقتصادى فى مقدمة هذه العوامل ، فقد ضاقت بعض الشعوب الأوربية من سياسة احتكار التجارة التى أتبعتها المدن التى استبعدت بدور الوساطة التجارية كجنوه ، والبندقية ، مما دفعها للإقبال على مزيد من التعلم فى علوم البحار وتشجيع الاتجاه للبحث عن طريق بديل غير البحر المتوسط ، والشام لما تتعرض له رحلات التجارة بين مصر والشام من الضرائب العالمية التى تفرضها فئة تجارية حاكمة متسلطة فى هذه البلاد وتعرض القوافل التجارية للنهب والسرقة كنتيجة لاضطراب الأوضاع السياسية فى منطقة الشرق الأدنى ، وكان استغلال هذه الأوضاع يدعو بالضرورة لتشجيع محاولة البحث عن طرق بديلة وهى محاولات حوت — شعور الكره للمسلمين حتى يسفيد البورجوازيين من مساندة الطبقة الدنيا لهم فى أفكارهم ومشروعاتهم الاقتصادية .

ثم يأتى دور الدوافع العلمية البحتة التى أختمرت فى ذهن كثير من المفكرين الذين دفعهم طموحهم العلمى الى حد المغامرة ورفض الخرافات التى كانت سائدة ، وأنفق الكثير ممن كانوا على قناعة بهذه الآراء من البورجوازيين أموال طائلة فى سبيل نصرة أفكارهم وقد أسهمت نتائج الرحلات الأولى وماحققته من نتائج علمية كرحلة ماركو بولو وغيرها الى مزيد من الاقبال على هذه الرحلات الكشفية الى جانب ما أضافته الى علوم الفلك وعلوم البحار والجغرافيا وغيرها من العلوم الانسانية بالمزيد من عادات الشعوب المكتشفة وحياتهم وأنشطتهم ، ونظمهم وتشجيع الراغبين فى تكوين ثروات أو تحسين أحوالهم الإقتصادية على الاقبال على هذه الرحلات من خلال ما نشره فى كتابته عن رحلته المشهورة الى الشرق(١) .

وفى الحقيقة أن الحديث عن قصة الكشوف الجغرافية ودور كل من المصريين القدماء والفينيقيين والعرب ، والأوربيين والمحدثون سواء كانوا أسبان ، أم برتغاليين أم هولنديين أو فرنسيين أم أنجليز ، ألمان أم الامريكان .. موضوع ليس من السهولة بمكان الخوض فى

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق ، ص ص ١٩ ، ٢٠ .

الحديث فيه سواء بالنسبة لكشف العالم القديم أو العالم الجديد .

ان الكشوف الافريقية مجالها كبير ، والحديث عن الكشوف الامريكية ، واستراليا ونيوزيلاندا مجالهما أوسع .. ونجوم الرحلات الكشفية أمثال (**ماجلان ، وكرستوفر كولمبس وأمريكو فيزبوتش، وداجاما ، وداسلسندزه وهنرى الملاح ، وهنرى ستانلى ، وجون جنتر ، وجيمس بروس،** وغيرهم) مجال أكبر من أن يمكن الحديث عنه فى هذا المقام كذلك نتائج هذه الكشوف وانعكاساتها سلبا وايجابا على الشرق والغرب على حد سواء . ولكن يكفى القول فى هذا الصدد أن الكشوف مهدت للتبشير ، وأن التبشير ، والكشوف الجغرافية مهدا بدورهما للاستعمار .

ك ـ عصر الاصلاح الاقتصادى :

وعصر الاصلاح الدينى هو ذلك العصر الذى شهد حركة الاصلاح الدينى فى أوربا ، ولقد كانت هناك ثمة عوامل أدت الى قيام حركة الاصلاح الدينى فى أوربا منها مساوىء الكنيسة مثل اشتغال كثير من رجال الدين بالأمور الدنيوية وعاشوا عيشة مخالفة لقواعد الدين والأخلاق .. وظهور الاتجاه نحو الدراسة والنقد تعبيرا عن حق الفرد فى دراسة الأنظمة ، والتقاليد اشتدت الرغبة فى دراسة الأصول الدينية وكتب القديسيين الأوائل وبدأت المقارنة بين تعاليم الدين الحقيقية وبين ما آلت اليه الكنيسة ، وكذلك عملية تشجيع الأمراء والملوك لوضع حد لتدخل الكنيسة فى شئونهم ، ولأن الكنيسة كانت لا تدفع ضرائب على أملاكها ، يضاف الى ذلك المتاجرة بصكوك الغفران التى كان الناس يشترونها لتخفيف عذاب موتاهم وغفران ذنوبهم ، وقد شجعتهم الكنيسة على ذلك رغبة منها فى جمع الأموال (١) .

ولقد تزعم هذه الحركة ، أعنى حركة الاصلاح الدينى ثلاثة من كبار المصلحين الدينيين من بينهم **ساڤونا رولا** (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) وهو راهب ايطالى هاجم الاستبداد السياسى لاصلاح الكنيسة وتطهيرها مما أزعج البابا ، ورجال الدين ، فدبروا له مؤامرة ، وأعدموه ثم أحرقوه ، أما **مارتن لوثر** (١٤٨٣ ـ ١٥٤٩) فهو بمثابة راهب ألمانى انزعج من فساد رجال الدين بأبدى معارضته لبيع صكوك الغفران فى عريضة علقها على باب كنيسة (روتنبرج)

---

(١) يوسف كامل تادرس: المرجع السابق ، ص ٢٠ .

وتتلخص آراء لوثر في وجوب خضوع رجال الدين للحكام وعدم أحقيتهم في تفسير الانجيل وتقليل الأديرة ، فأصدر البابا ليو العاشر قرارا بحرمانة من الكنيسة فاختفى هو وتلاميذه في حماية أمير سكسونيا فترة ترجم أثنائها الانجيل الى الالمانية فاطلع الالمان على الكتابات الدينية دون وساطة الكنيسة ، مما شجع الفلاحين والفرسان والأمراء على الانضمام الى حركة وعرف أنصار المذهب الجديد بالبروتستانت أو المحتجين كما عرف مذهب لوثر بالمذهب البروتستانتي . أما كلفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) فقد ولد في فرنسا وعلى يديه انتقلت حركة لوثر الاصلاحية الى فرنسا . ونادى كلفن بتوحيد السلطة الدينية وحق الشعب في أختيار رجال الدين . وقد اضطهده الملك فرانسوا الأول فرحل الى سويسرا وتنقل بين جنيف وانجلترا ، وعرف أتباعه باسم الهيجونوت . . ولقد نتج عن حركة الاصلاح الديني هذه التي فجرها زعماء حركة الاصلاح الديني أن أنقسمت أوربا دينيا الى معسكريين : الكاثوليك وهم أنصار البابوات ، والبروتستانت وهم أنصار لوثر وقامت حروب بين المعسكرين كان لها أثر كبير في تاريخ أوربا الحديث(١) .

ل ـ عصر الثورة الصناعية :

كان من أبرز معالم تاريخ أوربا الحديث أيضا . . عصر الثورة الصناعية حيث شهدت أوربا تغييرا جذريا في الهيكل الصناعي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، فقد حدثت زيادة كبيرة في الانتاج صحبه انقراض للعمل اليدوي حيث حلت الآلات وخضعت كل الصناعات للبحث العلمي ، مما أسهم في تطورها لذلك سميت هذه الفترة بالثورة الصناعية . . ولا يعني ذلك أن الصناعة توقفت بعد هذه الفترة بل كثيرا سارت سيرا طبيعيا لا يماثل القفزة التي شهدتها هذه الفترة .

ولقد كانت هناك ثمة أسباب لقيام الثورة الصناعية منها تراكم رأس المال الذي أدى الى امكانية تمويل البحوث ، والمخترعات وقد كونت الدول الأوربية هذه الأموال من خلال أستغلالها لموارد المستعمرات في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وعلى حساب شعوبها ، كما شهدت فترة القفزة الصناعية أو الثورة الصناعية تقدما هائلا في بعض الصناعات سواء في اختراع الآلات

---

(١) يوسف كامل تادرس: نفس المرجع السابق ، ص ص ٢١ ، ٢٢ .

لها أثر في زيادة انتاجها .. ومن أهم هذه الصناعات، صناعة الغزل والنسيج نتيجة اختراع المكوك الطائر سنة ١٧٣٣ . ثم اختراع المغزل الجديد عام ١٧٦٧ ثم المغزل المختلط الذى أتم الثورة في عالم الغزل ، ثم النول الآلى . أما من حيث الصناعات المعدنية فلم يكن وجود الحديد والصلب وحده ، هو الأساس اللازم لكن تطور أسلوب صهره من الخشب الى الفحم الى الأكسجين كوسيلة لهذه الصهر هو الذى أسهم في اكساب هذه المعادن أهمية كبرى وكذلك أدى الى تقدم الصناعات التى تعتمد عليها وأدت زيادة عدد المصانع الى تقويض بقايا الاقطاع . ويركز الكثير من المؤرخين على أهمية القوة البخارية حيث كانت تعد أسباب صناعة الغزل والنسيج والحديد والصلب، فقد عجزت مساقط المياه سواء في قوتها أم في مواقعها واشتراط وجود المصانع بجوارها عن الوفاء بالتطور الذى حل بالصناعة ولزم البحث عن مصادر أخرى للقوى . وبدأ العلماء الفرنسيون في أعداد أبحاث عن القوة البخارية .. ثم اخترعت آلة بخارية كانت كثيرة المخاطر الى أن تم تطويرها . (١) .

ولقد أسهمت الثورة الصناعية في انهيار النظام الاقطاعي ، حيث صاحب التوسع في المدن الصناعية في الطلب على الموارد الغذائية فضلا عن التوسع في بناء القوات المسلحة قد أدى أيضا الى زيادة الطلب على هذه المواد فاتجهت الأنظار الى تحويل المراعى الى أراضى زراعية ، وقد عرفت هذه الحركة بحركة الأسيجة أو التوسع الزراعى الأفقى .

ومما ساعد على التوسع في المجالس التشريعية في دفع الدولة لهذا التوسع أملا في زيادة حجم أراضيهم ثم ظهرت دعوات التوسع لموازنة التوسع الافقى من ناحية وتحول المنتجات الزراعية الى منتجات رأسمالية من ناحيه أخرى .. ولعبت الجمعيات الزراعية دورا كبيرا حيث رفعت من كفاءة العامل الزراعى في زيادة الانتاج ونظمت كذلك الدورات الزراعية وزيادة عدد مرات زراعة الأرض سنويا ، وذلك عن طريق استخدام الاسمدة والالات ، وهذا ما عرف باسم الثورة الزراعية (٢) .

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٥٧ .
(٢) عبد العزيز سليمان نوار : نفس المرجع السابق، ص ٥٨ .

م — قصة الحضارة :

لو حاولنا مع الدكتور حسن عثمان ٠٠ تصفح كتابا عاما وافيا عن تاريخ الحضارة الانسانية مثل كتاب قصة الحضارة الذى ألفه ويل ديورانت الأمريكى الذى ولد فى ولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الامريكية فى سنة ١٨٨٥ ٠ ودرس فى نيوجرسى وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك، درس التاريخ والأدب، والفلسفة وقام برحلات عديدة فى أنحاء عديدة فى أنحاء العالم، وتزوج احدى تلميذاته فى البحث والتأليف.

ونجده وقد وضع كتابه فى خمسة أجزاء ولكنه عدلها وزادها الى سبعة أجزاء، ثم عدلها ثالثا وزادها الى عشرة أجزاء، وصدر منها منذ سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٦٣ ثمانية أجزاء وهى : —

١ — تراث الشرق القديم	I — Our Oriental Heritage.....
٢ — حضارة اليونان	II— The Life of greece.....
٣ — عصر قيصر والمسيح	III— Caesar and Christ.....
٤ — عصر الايمان	IV— The age of the Faith .....
٥ — عصر النهضة	V — The Renaissance.....
٦ — عصر الاصلاح الدينى ٠	VI— The Reformation .....
٧ — بداءة عصر البحث العلمى	VII— The age of Reason Begins.....
٨ — عصر لويس الرابع عشر	VIII—The age of Loux X TV ....
٩ — عصر فولتير	IX— The age of Voltaire .....
١٠ — عصر وروسو والثورة الفرنسية الكبرى	X — Rousseau and Revolution....

والجزأين الاخيرين السالفى الذكر ظهرا فيما بعد (١)

ولو حاولنا قراءة هذه الأجزاء قراءة بيليوجرافية لسوف نجد أن المؤلف قد تناول فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب أوجه النشاط الانسانى المتنوعة، والظروف التى لابستها من أقدم العصور حتى عصر لويس الرابع عشر، وسيصل فيما بعد ذلك على اعتبار

---

(١) حسن عثمان (دكتور) : منهج البحث التاريخى، ص ١٤ ٠
ديورانت، ويل : معجم الحضارة ١٠ جـ× ١٠ مج ٠

أنها لا تزال في دور الغليان ، والتكوين ، مما يجعل الكتابة عنها أمرا أبعد عن مجال قدرته العلمية ، وفي الأجزاء المشار اليها شرح (ويل ديورات) حال الانسان في بيئته البدائية ووصف نموه التدريجي ، وتناول سير الحضارة وتطورها ، ودرس البيئات والملوك ، والحكماء ورجال الدولة ، وتناول سير الحضارة والحرب والسلام ، ودرس فصائل الفلسفة والفكر ، والدين ، والعلم ، والأدب ، وفنون التصوير ، والنحت والموسيقى وشرح أحوال المجتمع ووصف ما نالته الأمم من المنجد والرفعة ، والمنعه وما أصابها من الهبوط ، والتدهور ، والانحلال ، وفي سبيل ذلك طاف المؤلف في صحبة زوجته كثيرا من أنحاء الأرض مرات عديدة ، متتاليه ، ومضيا معا باحثين منقبين ، مشاهدين متأملين ، مستلهمين معارفها ، ومخترعاتها من شتى ، المراجع ، والمصادر والآثار ، فجاء الكتاب وافيا شاملا مع تميزه بالبساطه ، والسهوله ، والسلاسه ، والعمق والذوق الرفيع ، والكتاب يحاول أن يعطينا صورة أقرب الى الصحة قدر المستطاع — عن المجتمع الإنساني ، وهو في حالة حركة دائبة لا تفتر ، ولا تهدأ أبدا ، اذ هي الحياة بذاتها مهما كان اتجاهها أو لونها ، وهذه الحركة لم تتكرر ، ولا تعيد نفسها على المنوال الذي حدثت به في عهد مضى ، وعلى ذلك يمكن أن يوجد بينهما من أوجه الشبه ، فلا سبيل الى أن يكون التشابه القائم بينها تشابها مطلقا لاختلاف في المكان ، وتغير في المكان ، وتغير في الزمان (١) .

وعلى ذلك فاننا نجد أنه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنا اجتماعيا فينبغي أن يعرف تاريخ تطورة وتاريخ أعماله ، وآثاره ، فيدرس مثلا العوامل التي أدت الى الغارات والحروب ، وما لابس ذلك ، وما خلفته من الآثار .

ولقد ألقينا الضوء على العديد من آثار الماضي ، ومخلفاته ، وبصماته ، على وجه الحضارة والانسانية ، والحياة منذ بدء الخلقة ، ومرورا بعصر ما قبل التاريخ وفجره والعصر التاليه له ، القديمة ، والوسيطة ، وما مرت به البشرية من أحداث جسام ، وما أضيف الى رصيدها من خبرات ، وتجارب ، وعبر وعظات ، فمثلا أحدا ما لا يمكن أن ينكر أثر حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر ، وما ترتب على ذلك من كشف عن طريق التجاره العالمي بين الشرق والغرب ، وما أدى اليه من تدهور أمم وارتفاع أخرى ، وينبغي

---

(١) حسن عثمان : المرجع السابق ، ص ١٦ .

عليه مثلا أن يدرس العوامل التى أدت الى ظهور نظام دستورى وروحه ومضمونه ، ويتبين أثره فى هيئة المحكمين وفى مجموع الشعب ، وينبغى أن يدرس الأسباب التى أوجدت أنواعا جديدة من الأدب ، أو ألوانا جديدة من فنون : التصوير ، والنحت ، والعمارة ، وبالبيئة وبالعبقريه الادبية والفنية التى خلقت هذه النماذج فى مختلف مجالات الأدب والفن وما الى ذلك من أوجه النشاط الانسانى ، ومقومات الحضارة (١) .

كذلك الأمور التى عوقت مسيرة الحضارة البشرية والتقدم الانسانى فى بعض مناطق العالم مثلما حدث فى عصر الرق ، الذى يعد من أسوأ وأظلم عصور التاريخ ، حيث تمت عملية نقل مجموعات هائلة من الزنوج الافارقة من الشرق والغرب الافريقى الى العالم الجديد حيث فقدت منطقة أفريقيا الغربية لوحدها أكثر من مائه مليون زنجى ، كما تعرضت مناطقها الى عمليات تدمير وتخريب ، بشرية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية .. أعاق تقدمها وأدى الى تأخرها .. فى الوقت الذى استفادت دول العالم الجديد من هؤلاء البشر التعساء من أرقاء أفريقيا فى بناء المجتمعات الجديده فى البرازيل ، وفى الولايات المتحده الامريكية ، حيث قام على أكتافهم صرح الحضارة الامريكية ، وهم الذين جعلوا الحياة فى أرض الأحلام ممكنة ، بعد أن أقاموا بجهود غير عادية فى مجال الزراعة ، والصناعة والتشييد والتعمير ، والرخاء ، وجعلوا الحياة فى أرض الأحلام ممكنة (٢) .

ن — عصر الاستعمار :

ثم ما أسفرت عنه عمليات الكشوف الجغرافية والتجارة فى الرقيق ، والثورة الصناعية من أمور كشفت عن مطامع الأوربيين فى العالم الجديد ، وفى القارة الافريقية حيث دخل العالم عصر الإستعمار بشكله الجديد والحديث ، حيث نهبت ثروات القارة الافريقية واقتسمت القوى الأوربية الاستعمارية أجزاءها ، ومزقتها شر ممزق ، حيث تعرضت القارة لعمليات اجتياح من جانب الاستعمار البريطانى ، والفرنسى ، والبلجيكى ، والايطالى ، والاسبانى ، والهولندى والدانمركى ، .. الخ . وظهور الشركات الاستعمارية ، والاستثمرات الاستعمارية ذات الطابع الرأسمالى ، والاستغلالى لاستنزاف موارد المناطق المكتشفة الخام ، وجعلها

---

(١) حسن عثمان (دكتور) : المرجع السابق ، نفس الصفحه .

(٢) صلاح أبو زيد (دكتور) : علاقات الولايات المتحدة الامريكية بغرب أفريقيا فى القرن التاسع عشر ، ص ص ٩ — ١٢ .

أسواق ومصارف للمنتجات الصناعية الغربية الضخمة، والكثيرة التي أسفر عنها الانقلاب الصناعي ثم بداية ظهور حركات الاستعمار وتصدت للاستغلال، وطالب بالاستقلال ثم تطاحن الدول الاستعمارية فيما بينها، ودخولها غمار حروب ضارية مثل الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من آثار، وخراب، ودمار، عانت منه البشرية كثيرا وما زالت بطبيعة الحال تعاني من الحروب وويلاتها حتى أيامنا هذه، فمن منا لم يعيش أحداث حرب فلسطين عام ١٩٤٨، والعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وحرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وحرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وحرب الخليج عام ١٩٩١ م، وحروب أخرى عديدة يتم تنفيذها الآن عبر وكالات الأنباء عبر شاشات التلفزيون، والصحف، والمجلات، وأجهزة الاذاعة، وكتب التاريخ العربية، يحدث هذا كله حتى أيامنا هذه.

وكل هذه الأحداث وأشكال الصراع هي التي تشكل بطبيعة الحال نسيج التاريخ حيث يمكن للمؤرخ الذي لديه خلفية ثقافية، ومعرفة تاريخية، أن يسبر أغوار الماضي، وأعماق الحاضر مستعينا بما وهب من جلد وصبر، ودأب على البحث والدرس، والنقد، وتحرى الحقيقة في وقائع الماضي، وأحداثه على النحو الذي ذكرنا أو ما يقرب منه.. وبذلك كله يستطيع أن ينفث من روحه، ومن نفسه، وحسه، تيارا من الحياة في حياة العصور الماضية ويبعثها نابضة متجلية في أقرب صورها الى ما كانت عليه في الزمن الماضي، وهذا أو ما يقرب منه هو التاريخ الذي ينبغي أن يكتب، وهذا هو التاريخ الشامل الحافل الذي هو الحياة بذاتها، والذي هو الانسان، في ذاته بشره وخيره.. وبكدره وصفوه وفي كل ظروفه وفي حربه وسلامه، وفي فقره وغناه، وفي خيبته وبرائته، وفي غطرسته، وتواضعه، وفي جهله، وعلمه، وبأساه وبهجته.. وهذا هو التاريخ الذي يشهد، ويسخر ويبتسم ضاحكا، ويأسى، ويفخر، ويتجمد، وهناك من يحاول أن يخدع التاريخ حينا من الزمن ولكن في النهاية لا يخدع أبدا.

والتاريخ بوقائعه العلمية المدروسة، وبخبراته المكتسبة عبر الأجيال وبالقرون وبروحه الفياضة الشاملة، يحفظ ويعلم جانبا على من هو مستعد لان يتعظ، ويتعلم، ويأسى على من لا يتعظ، فهل آن للبشرية أن تتعظ وتتعلم.. ؟ وهو سؤال قد يظل دائما أبدا... بلا اجابة!

---

(١) حسن عثمان (دكتور): المرجع السابق، ص ص ٢٠٢، ٢٠٣.

المصـادر والمراجـــع

أولا : المراجـع العربيـــة :

١ ـ **حسن عثمان** (دكتور) : منهج البحث التاريخي. ط٤ ، القاهرة، دار المعارف. ١٩٨٠.

٢ ـ **ديورانت، ويل** : معجم الحضارة. ١٠ جـ× ١٠ مج . القاهرة، ١٩٦٢ م.

٣ ـ **دفي ، جيمس**: الاستعمار البرتغالي في أفريقيا : تأليف جيمس دفي، ترجمـــة : الدسوقي حسنين المراكبي ، القاهرة، الانجلو المصرية، ١٩٦٣ م.

٤ . **صلاح أبو زيد** (دكتور) : علاقات الولايات المتحدة الامريكية بغرب أفريقيا في القرن ١٩ ، سوهاج ، دار محسن للطباعة، ١٩٩١ م.

٥ ـ **رأفت غنيمي الشيخ** (دكتور) : تاريخ العرب الحديث والمعاصر. القاهرة، وزارة التربية والتعليم، ١٩٨٦ م.

٦ ـ **رشاد رشـدي** (دكتور) : فن القصة القصيرة. القاهرة، مكتبه الانجلو المصريـة، ١٩٥٩ م.

٧ . **عبد العزيز سليمان نوار** (دكتور) : تاريخ أوربا الحديث والمعاصر. تأليف: عبد العزيز سليمان نوار، د . زكريا سليمان بيومي ، د . علي عبد اللطيـــف القاهرة، وزارة التربية والتعليم، ١٩٧٧ م.

٨ ـ **عبد العزيز كامل الشناوي** (دكتور) : أوربا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة،

٩ ـ **القرآن الكريم** : المدينة المنوره، مجمع الملك فهد للطباعة المصحف الشريف، ١٤١٠ .

١٠ ـ **الكتاب المقدس**: كتب العهد القديم، والعهد الجديد ، القاهره، دار الكتاب المقدس، ١٩٨٣ م .

١١ ـ **محمد عبد الفتاح ابراهيم** : أفريقيا الأرض والناس، القاهره، الانجلو المصرية، ١٩٦١ م.

١٢ ـ **ويلز، د . هـ** : موجـز تاريخ العالم، القاهره، ، ١٩ م.

١٣ ـ **يوسف كامل تادرس**: أصول العالم الحديث، القاهره، مطبعة التقدم (د . ت) .

ثانيا: المراجع الأجنبيـــة :

1- Roshdi, Rashad: Notes on Structure and Texture In Narration.

ثالثا : الرسائل الجامعية :

صلاح أبو زيد (دكتور) : الاستعمار الألماني في غرب أفريقيا ، أسيوط ، جامعه أسيوط كلية الآداب بسوهاج ، ١٩٨٤ م .

رابعا: الدوريات :

مجلة الدراسات الافريقية : القاهره ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، العدد الأول ، ١٩٧٢ م .